رد على رد

بين القديم والجـــديد

(لأحد أساطين الأدب الحديث)

يجمع الأستاذ النمراوى فى نفسه من صفات الخلق العظيم ما لا يتفق إلا لقليل من المهذبين الأفاضل ؛ فهو يغار على الفضيلة والدين، ويجمع إلى غيرته لطف المناظرة والإنصاف وآداب الحديث والمجادلة بالتى هى أحسن؛ وهذه رعاية من الله، نرجو أن يديم الله عليه نعمته . وقد ظهر عدل الأستاذ وإنصافه فى اعترافه بأن فى الأدب القديم أكثر مما يشكو منه مما فى الأدب الحديث ، وفسر القديم بأنه ليس القدم الزمنى ، فالقديم والحديث فى اصطلاح الأستاذ صفات لا تدل على الزمن ، وضرب مثلاً بشعر عمر بن أبى ربيعة وقال : إنه لو كان فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه لنفاه بسبب غزله. فعمر بن أبى ربيعة إذاً على قدمه الزمنى ليس من المذهب

على ما كان يقال فى ذلك الحين من أن تدبير الدراسة والكتب المدرسية ليس بالأمر العسير

* * *

هذه ملاحظاتنا على موازين الأستاذ الرافعى فى تاريخ هذه الفترة ، فهو يسح من هذا التاريخ كل ما يبين وجه الصواب عند من خالفوا صاحب السيرة فى الأساس أو التفصيل ، ويثبت من جهة أخرى ظنوناً لا ثبوت لها لتقرير الصواب فى جانب المؤيدين والناصرين

ومع هذا نقول إن مكتبة « النهضة القومية » لا تكمل بغير كتاب الأستاذ عن معطفى كامل ، لأنه يشتمل على وقائع صحيحة وأسانيد صادقة وملاحظات قيمة . أما المواضع التى ينحرف فيها بعض الانحراف عن سنته فى الإنصاف والتمحيص، فليس للقارئ أن يطلب الحق كله من كتاب واحد ، ولا سيما فى تاريخ تختلف فيه الميول والآراء .

عباس محمود العقاد

القديم فى الشعر والأدب على حد اصطلاح الأستاذ ، إذ أن القديم فى اصطلاح الأستاذ هو من لم يقل غزلاً يثير شجون النفس وشهواتها وتعلقها بفتنة الحسن . وليعذرنى الأستاذ إذا قلت إنه يصعب علىه أن يجد شاعراً واحداً يصح أن ينطبق عليه اصطلاح القديم فى عرفه ، فهذا الرافعى على تقواه ودينه وفضله له فى الغزل نثراً وشعراً أشياء (أشهى) من شعر عمر بن أبى ربيعة . ألم يقرأ الأستاذ النمراوى للرافعى وصفه للراقصة ومحاسن جسمها وقصته معها ؟ ومع ذلك فالأستاذ النمراوى يقول إن أدب الرافعى يمثل الأدب القديم فى اصطلاحه، مع أن الأستاذ النمراوى لو كان خليفة وعرض عليه غزل عمر بن أبى ربيعة وبعض ما قاله الرافعى شعراً ونثراً فى الغزل ووصف مفاتن الحسن ولذة التقبيل ومحاسن جسم المرأة لأمر الأستاذ بنفى الشاعرين : ابن أبى ربيعة والرافعى معاً . وإذا كان الأستاذ فى شك من أن الرافعى له أشياء أشهى من أشياء عمر بن أبى ربيعة ذكرنا له طرفاً منها ورضينا بحكمه وهو أعدل الحاكمين من الناس . بل نحن نترك للأستاذ الخيار فليختر أى شاعر ونحن نورد له ما يستحق به النفى لو وكل الأمر إلى الأستاذ النمراوى فى نفى الشعراء ونورد ما يستحق به النفى ونقارنه بما استحق به عمر بن أبى ربيعة النفى ونقبل حكم الأستاذ النمراوى فى المقارنة وهو خير الحاكمين

إننا ما أردنا أن نعذر شطط المتأخرين بشطط المتقدمين كما ذكر الأستاذ وإنما أردنا أن نبين أولاً أن النفس البشرية واحدة فى كل زمان ومكان مهما اختلفت الفروق الظاهرة وبالرغم من شذوذ الآحاد بالنقاوة النادرة أو النجاسة البالغة النادرة. وأردنا أن نفسر أثر المتقدمين فى أقوال المتأخرين وأن نقول إن الشطط فى وصف المفاتن وفى شرح الشكوك النفسية لم يأتنا من ناحية الافرنج وحدهم بل جاءتنا به مؤلفات العرب ولا سيما عند ما أُدْخِلَتْ الطباعة وطبعت المخطوطات العربية القديمة والحديثة . على أن النفس الإنسانية ياسيدى الأستاذ ينبوع يفيض بكل ذلك من غير حاجة إلى كتب العرب أو كتب الأوربيين ؟ وإن شاء الأستاذ فليرتد أماكن الناس الذين لم يتأثروا كثيراً بكتب العرب ولا بكتب الإفرنج وليسمع هواجس نفوسهم .

على أن فى ذكر الأستاذ التجاء عمر بن الخطاب إلى النفى

ما يدل على أن النفوس فى عهد عمر رضى الله عنه لم تكن تمتنع عن التعلق بمفاتن الحسن ومحاسن الحياة ، ولعل الأستاذ قد أذكرته التجاء عمر إلى النبى قصة سماع عمر غناء التى تغنت بهذا البيت:

هل من سبيل إلى خمر فأشربها
أم من سبيل إلى نصر بن حجاج

فنفى عمر رضى الله عنه نصراً هـــذا . ولو رجع الأستاذ إلى ما قبل سيدنا عمر وتدبر حكمة الآية الكريمة التى تنهى الناس عن قرب الصلاة وهم سكارى لرأى عبرة تسلك النفوس البشرية فى كل عصر فى صعيد واحد بالرغم من تفاوتها . وأستحلف الأستاذ أن يحكم على تلذذ كعب بن زهير بذكره كبر عَجُز حبيبته فى قصيدة (بانت سعاد) عندما قال (هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة) وتلذذه بذكره كبر العَجُز فى قصيدة يمدح بها النبى صلى الله عليــه وسلم وهى قصيدة يتبرك بها بعض الناس، وبعضهم يتخذها حجاباً وتميمة بما فيهــا من التلذذ بذكر كبر العجز من غير فطنة إلى مافيها . ومع ذلك قد مر النبى صلى الله عليه وسلم بغزل كعب هذا مر الكرام بمــا كان يدعو إليه من العقيدة السمحة وتألف النفوس ومعرفته ضعف النفس وقصورها . فــماذا كان يصنع الأستاذ الغمراوى لو أن شاعراً مدحه بقصيدة تغزل فى أولها وتلذذ فى غزله بذكر كِبَر عَجُز حبيبته ؟ هل كان يتغاضى كما تغاضى النبى صلى الله عليه وسلم أم كان ينفيه كما أراد أن ينفى عمر بن أبى ربيعة ؟ وماذا كان يقول الأستاذ لو أن شــاعراً انجليزيا مدح ملك انجلترة ومقام الملك دون مقام النبوة فقال الشاعر فى قصيدته (إن حبيبتى يا كنج جورج لها عجز كبير)؟ إننا يا أستاذ نضرب هـذه الأمثال لنبين أن الناس ناس فى كل زمان ومكان، وأن النفس البشرية واحدة مهما تباينت واختلفت صفاتها . ولو كان الأستاذ فى شك من ذلك فليراجع ديوان حسان بن ثابت فيراه فى قصيدة يتهم أبا الوليد ابن المغيرة بمحبة غــلام رومى جميل كان مملوكاً له ، وبأنه علق صــورة الغلام كى ينظر إليها إذا غاب عن نظره ، ويتهم أمه بمحبة الغــلام أيضاً . (صفحة ٣٢٩ طبعة السعادة شرح العبانى) . ولو رجع الأستاذ إلى كتاب (العقد الفريد)

من برجنا العاجى

جاءنى بريد « بيروت » هذا الأسبوع بمجلة أدبية فاضلة ما كدت ألقى نظرة على صدرها حتى وجدته زاخراً بسب مصر ورجال الأدب فى مصر . مع استنكار « لامتداد الأدب المصرى والثقافة المصرية فى أجواء البلاد العربية » وبعد أن نفى الكاتب الكريم عن مؤلفات المصريين كل قيمة فى بضعة أسطر ، ختم الكلام بقوله : « إننى أنكر هذه الثقافة (اللقيطة) ويعزّ علىّ كلبنانى عربى أن تؤخذ بلادى بالتدجيل وتخدع بالدعايات المجانية أو المأجورة »

ما هو الدافع إلى هذا القول ؟ أهو نقد الجهود فى ذاتها حتى نستيقظ قليلاً ونرى أن قراءنا فى البلاد الشقيقة قد بدأوا يسأمون إنتاجنا ، ويستحثوننا على تجديد طرائقنا وتمرّز وسائلنا ، حتى يظفروا ويظفر الأدب العربى الحديث بالنهضة الباهرة المنشودة ؟ إن كان هذا هو قصد المجلة والكاتب فهو قصد نبيل ، لا يسع مصر وكتابها إلا أن يبعثوا إليهما من أجله أصدق عبارات الشكر

أما إذا كان الباعث هو مجرد الغضب لأن مصر بالذات هى التى تنبعث منها أشعة الثقافة العربية الحديثة فى الوقت الحاضر ، فتلك عاطفة لا تشرف صاحبها ولا نحب نحن أن نسلم بوجودها ، خصوصاً فى بلد تربطنا به أواصر النسب

ومع ذلك فهذا أمر لا ينبغى أن يكون موضع جدال ، لأنه أمر يتعلق بالواقع

فإذا كان الواقع هو أن نسيم الثقافة يهب علينا اليوم من جبال لبنان ، فلا أحبّ إلينا نحن المصريين من هذا . وهو خير لنا وأشرف من أن يهب علينا من جبال الألب

غير أن الذى يؤلمنى هو أننا معشر الشرقيين يكبر علينا دائماً أن نرى الفضل يأتينا من شرق ، ولا نغضب بل نفخر إذ يأتينا الفضل من غرب !

ولأرفع صوتى صريحاً : إن الشرق لن تقوم له قائمة إذا بقيت فيه ذرة من روح التنابذ والتحاسد . فإن لم يسعفنا التعاون والتساند فلنوقن بسقوطنا العاجل بين فكى الغرب النهم .

توفيق الحكيم

لقرأ أن سائلاً سأل عبدالله بن العباس ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم: هل قول المجون ينقض الوضوء ؟ فقال : لا. وأنشد بيتاً فيه مجون وكانت قد حانت الصلاة فقام وصلى للدلالة على أن شعر المجون لم ينقض وضوءه. وفي حالة أخرى سمع وهو يحدو ببيت فيه مجون. ولو تقصى الأستاذ أخبار سبي الرقيق من المدن الفارسية والرومية التي فتحت عنوة وأثر ورود هذا السبي إلى شبه جزيرة العرب ، وما كان يرد قبله من جلب تجارة الرقيق قبل الإسلام لعلم أن الولوع بمفاتن الحسن لم يكن مقصوراً على الشعراء المتقدمين أو المتأخرين . ونحن لا نريد أن نعذر حالة الناس في عصرنا . فلعل التعلق بمفاتن الدنيا في عصرنا أضر وأفسد إذ أن القوى الحيوية الخلقية العظيمة في نفوس المتقدمين كانت تستطيع موازنة ضعف هذا التعلق، وانعدام هذه القوى الخلقية الحيوية في عصرنا يزيد ضرر التعلق بمفاتن الحسن وشهواته . نسلم ذلك ونوافق الأستاذ على ضرورة معالجة هذه المسألة ، ولكن لا يكون ذلك إلا بالتربية وتطهير الكتب ولاسيما القديمة. أما أننا رجعنا إلى مبدأ نهضة التجديد فالأستاذ نفسه يعترف بأن التجديد في الأدب روح لا قالب ، وأن هذه الروح مستمدة من نظام التعليم الحديث ، ومن الأنظمة التي اقتبست من الأنظمة والشرائع والسنن الأوروبية ، ومن البعثات العلمية إلى أوروبا وأثرها في النفوس، ومن الكتب التي ترجمت؛ وما دامت المسألة مسألة روح لا قالب فلا يستطيع الأستاذ فصل التجديد في العلوم والتعليم والنظم والشرائع عن التجديد في الأدب وهو لم يحاول أن يفعل ذلك . أما أننا فسرنا قوله : (تغليب دين على دين) بغير ما أراد فمذرنا في ذلك أنه كان يقارن بين الثقافة والحضارة والدين عند العرب وعند الأوروبيين فلم يخطر ببالنا أنه يعني بالدين عند إطلاقه على الأوروبيين معنى الضلال والباطل وإنما ظننا أنه يعني دينهم ، ولنا العذر أو بعض العذر . وأما قول الأستاذ إن حافظ ابراهيم رجع بالقزل إلى طريقة الجاهلية وصدر الإسلام أي طريقة النزل بالعاطفة كما فعل المذربون فهذا ما لا يقول به حافظ نفسه ولم يقل به أديب قبل الأستاذ . والأصح وهو ما قلناه من أن البارودي وشوقي وحافظ أنقذوا الأدب من طريقة ابن حجة الحموي وخليل بن أيبك الصفدي وصفي الدين الحلي وأشباههم ورجعوا به إلى طريقة مسلم بن الوليد وأبي تمام والبحتري وحسبهم هذا فخراً . وقد جعلنا أكثر قولنا في التجديد في الشعر لأن الباعث على مقالات الأستاذ كان شعر الرافعي والعقاد، ولم نقصر التجديد على محاولة إدخال العاطفة كشرط أساسي في النزل بل قلنا إنها شرط أساسي في كل شعر، وإن الصنعة لازمة، ولكن كخادمة للتعبير عن النفس والحياة وعواطف النفس وأحاسيسها فيهما ، فتحجر الصنعة من غير بحث في النفس قيد ، والتخلص من جمود ذلك التحجر حرية، وهي الحرية التي أردناها في قولنا . وقد فسرنا ذلك بإطالة وأوضحنا أن هذه الحرية ليس معناها التخلص من قيود العرف أو الدين، فنرجو الأستاذ أن يرجع إلى ما فصلنا من الكلام عنها. وقد اعترفنا للأستاذ بما في نزعة التجديد من عيوب وحبذا لو رجع الأستاذ إلى ذلك التفسير والتعليل، وقلنا إنها عيوب عارضة وليست كل شيء. أما المسائل الاجتماعية التي ذكرها الأستاذ فهي أمور يختلف فيها الأدباء وغير الأدباء ويختلف فيها الناس في كل عصر؛ ولو شاء الأستاذ لذكرنا من أقوال كتاب العرب وشعرائهم ما هو أشد من أقوال طه حسين وهيكل وقاسم أمين. ومن الغريب أن الأستاذ لا يرى حرجاً في الاقتباس من علوم أوربا ويرى حرجاً في الاقتباس من مذاهبهم وأبواب أدبهم ، وإذا كان هناك حرج فالحرج في الحالتين .

(قارئ)